2 - باب التوبة:

قَالَ العلماءُ: التَّوْبَةُ وَاجِبَةٌ مِنْ كُلِّ ذَنْب، فإنْ كَانتِ المَعْصِيَةُ بَيْنَ العَبْدِ وبَيْنَ اللهِ تَعَالَى لاَ تَتَعلَّقُ بحقّ آدَمِيٍّ فَلَهَا ثَلاثَةُ شُرُوط: (أحَدُها: أنْ يُقلِعَ عَنِ المَعصِيَةِ، والثَّاني: أَنْ يَنْدَمَ عَلَى فِعْلِهَا، والثَّالثُ: أنْ يَعْزِمَ أنْ لا يعُودَ إِلَيْهَا أَبَدًا). فَإنْ فُقِدَ أَحَدُ الثَّلاثَةِ لَمْ تَصِحَّ تَوبَتُهُ.

وإنْ كَانَتِ المَعْصِيةُ تَتَعَلقُ بآدَمِيٍّ فَشُرُوطُهَا أرْبَعَةٌ: هذِهِ الثَّلاثَةُ، وأَنْ يَبْرأ مِنْ حَقّ صَاحِبِها، فَإنْ كَانَتْ مالًا أَوْ نَحْوَهُ رَدَّهُ إِلَيْه، وإنْ كَانَت حَدَّ قَذْفٍ ونَحْوَهُ مَكَّنَهُ مِنْهُ أَوْ طَلَبَ عَفْوَهُ، وإنْ كَانَت غِيبَةً استَحَلَّهُ مِنْهَا. ويجِبُ أنْ يَتُوبَ مِنْ جميعِ الذُّنُوبِ، فَإنْ تَابَ مِنْ بَعْضِها صَحَّتْ تَوْبَتُهُ عِنْدَ أهْلِ الحَقِّ مِنْ ذلِكَ الذَّنْبِ وبَقِيَ عَلَيهِ البَاقي.

وَقَدْ تَظَاهَرَتْ دَلائِلُ الكتَابِ والسُّنَّةِ، وإجْمَاعِ الأُمَّةِ عَلَى وُجوبِ التَّوبةِ. قَالَ اللهُ تَعَالَى: {وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [النور: 31]، وَقالَ تَعَالَى: {وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ} [هود: 3]، وَقالَ تَعَالَى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحا} [التحريم: 8].

بعد أن انتهى المؤلفُ رحمه الله تعالى من كتاب الإخلاص اتبع رياضَهُ ببابٍ آخر وهو بابُ التوبة [والذي يتضحُ من صنيع المؤلف رحمه الله تعالى أنّه أراد لزائر هذه الرياض أن يدخل من أولِ أبوابها وأوسعها ألا وهو بابُ الإخلاص لله تعالى، فإذا انتفع من ثماره اليانعة وماءه العذب الطهور فتطهر قلبُه وتخلص من شوائب الشرك والعمل لغير وجه الله تعالى، فعليه أن يلِجَ من الباب الثاني من أبواب الرياض لتتطهر نفسُه من دَرنِ المعاصي وآفاتِ الذنوب، فلذلك أتبع البابَ الأول بالبابِ الثاني وهو بابُ التوبة].

والتوبة في اللغة: بمعنى الرجوع، **وشرعاً:** الرجوع من البعدِ عن الله تعالى إلى القُربِ إليه سبحانه وبحمده، **أو بمعنىً آخر** هي الرجوع من معصية الله تعالى إلى طاعته.[1]

قول المؤلف (**قَالَ العلماءُ**): العلماء جمع عالم، والمقصود بهم أئمةُ الهُدى وعلماء الدين (الذين حفظ الله تعالى بهم الدين، وجعلهم سبباً في وصوله إلينا، يحملُ هذه الأمانة من كلِ جيلٍ عدوله حتى وصل إلينا)[2] ودورنا أن نحمل هذا العلم ونوصله كما جاءنا لمن بعدنا من غير هوىً ولا بدعةً (وهذه والله هي المسؤولية والأمانة المنوطة بكل مسلمٍ غيورٍ يرجوا الله واليوم الآخر).

قوله (**التَّوْبَةُ وَاجِبَةٌ مِنْ كُلِّ ذَنْب**) ووجوبها مجمعٌ عليه، لا فرق بين الصغائر والكبائر الظاهرة والباطنة كالحقد والحسد، وهذا من لطف الله تعالى ورحمته بعباده المؤمنين خاصة بل وبالناس عامة فما من ذنبٍ عُصيَّ به الله تعالى إلا وقد جعل الله تعالى له توبةً بالرجوع عنه إلى ما يُرضي اللهُ تعالى مهما عظُمَ هذا الذنب أم صَغُرَ.

فأعظمُ ذنبٍ عُصيَّ به الله تعالى هو الشرك وهو أقبحُ الذنوب وقد وصفه الله تعالى بأنّه الظلم العظيم فقال تعالى في سورة لقمان: {إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} وقال النبيُ صلى الله عليه وسلم حينما سأله عبدُالله بن مسعود رضي الله عنه أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ؟ قَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ».[3]
مع ذلك تجد اللهَ تعالى يقول في المشركين المّحاربين لله ورسوله في سورة الأنفال: {قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ (38)} والمعنى: قل -أيها الرسول- للذين جحدوا وحدانية الله مِن مشركي قومك: إن ينزجروا عن الكفر وعداوة النبي صلى الله عليه وسلم، ويرجعوا إلى الإيمان بالله وحده وعدم قتال الرسول والمؤمنين، يغفر الله لهم ما سبق من الذنوب، فالإسلام يجُبُّ ما قبله.[4]

---

[1] قال الإمام بن علان رحمه الله تعالى: [فمن رجع عن المخالفات خوفاً من عذاب الله فهو تائب، ومن رجع حياء فهو منيب، ومن رجع تعظيماً لجلال الله سبحانه فهو أوّاب] دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين (90/1).

[2] للحديث الثابت عند البيهقي في السنن الكبرى برقم (20911) أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يَحْمِلُ هَذَا الْعِلْمَ مِنْ كُلِّ خَلَفٍ عُدُولُهُ يَنْفُونَ عَنْهُ تَحْرِيفَ الْغَالِينَ وَانْتِحَالَ الْمُبْطِلِينَ وَتَأْوِيلَ الْجَاهِلِين» وصححه العلامة الألباني في مشكاة المصابيح برقم (248).
قال المُلا القاري رحمه الله: لِمَا خَصَّ هَؤُلَاءِ بِهَذِهِ الْمَنْقَبَةِ الْعَلِيَّةِ؟ فَأُجِيبَ: [بِأَنَّهُمْ يَحْمُونَ الشَّرِيعَةَ وَمُتُونَ الرِّوَايَاتِ مِنْ تَحْرِيفِ الَّذِينَ يَغْلُونَ فِي الدِّينِ، وَالْأَسَانِيدَ مِنَ الْقَلْبِ وَالِانْتِحَالِ، وَالْمُتَشَابِهَ مِنْ تَأْوِيلِ الزَّائِغِينَ الْمُبْتَدِعِينَ بِنَقْلِ النُّصُوصِ الْمُحْكَمَةِ لِرَدِّ الْمُتَشَابِهِ إِلَيْهَا، وَهَذَا مَعْنَى مَا وَرَدَ: " «لَا يَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ» ". رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ] اهـ مرقاة المفاتيح (323/1).

[3] متفقٌ عليه أخرجه البخاري برقم (4477) ومسلم برقم (141).
[4] التفسير المُيسر ص 181.

وقال تعالى في سورة التوبة: {فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (5)}.

ومن الأقوال الشنيعة التي نسبها النصارى الضالون في شركهم بربهم سبحانه وبحمده (إدعائهم لله تعالى الولد) تعالى اللهُ عمّا يقول الظالمون علواً كبيراً، وقد بيّنَ اللهُ تعالى شناعة هذا القول بقوله تعالى في سورة مريم: { وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (88) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (89) تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (90) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (91) وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا (92) إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا (93) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (94) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا (95)}، وقال تعالى وقد أنذرهم عاقبة هذا القول الكاذب القبيح كما في سورة الكهف: {وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا (4) مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا (5)}.

ومع ذلك تجد اللهَ عز وجل بعد أن كفَّرَهُم وتَوعدَهُم بالعذاب على هذا المُنكر العظيم، يتودد إليهم بعرض التوبةِ عليهم وهو الغنيُّ عنهم سبحانه وبحمده فقال في سورة المائدة: { لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (72) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (73) أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (74)}.

وقد توعَّدَ اللهُ تعالى أحبارَ اليهود وعلماء النصارى الذين يكتمون ما أنزل الله تعالى في كتابه من صفة نبينا صلى الله عليه وسلم، ويشترون بآيات الله تعالى ثمناً قليلاً باللعن والعذاب الأليم فقال تعالى في سورة البقرة: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ (159)}.

ومع ذلك تجد اللهَ تعالى يُرشدهم للتوبة ويُبشرهم بقبولها إن أتوا بها على ما اشترطه عليهم سبحانه وبحمده فقال بعدها: {إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (160)}.

وهؤلاء هم المنافقون الذين أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر، وكرهوا ما أنزل اللهُ تعالى ورسوله، وحاكوا المؤامرات وكادوا للمؤمنين وآذوهم، وكانوا عوناً للكافرين عليهم.

ومع ذلك تجد اللهَ تعالى بعد أن توعدَهم بأشدِّ العذابِ يُرغبُهم في التوبة وهو الغنيُّ عنهم جلَّ شأنه فقال في سورة النساء: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا (145) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (146)}.

وكذلك تجبُ التوبةُ من كبائر الذنوب كالزنا والقتل كما في سورة الفرقان: { وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (68) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (69) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (70) وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا (71)}.

وعموماً فالتوبةُ واجبةٌ من كل ذنب لقول الله تعالى: { وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} وسيأتي الكلام عن هذه الآية الكريمة بشيءٍ من التفصيل.

والتوبةُ أثرٌ من آثار اسم الله التواب: قال تعالى: {أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} [التوبة: 104]، وقال تعالى: {فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا} [النصر: 3].

فالتواب في حق الله تعالى هو الذي يتوب على عبده بألطافه، ويوفقه إلى التوبة، وييسرها له، ثم يقبلها منه.[5]

---

[5] فهو التواب الذي يُيسر أسبابَ التوبة لعباده مرة بعد مرة بما يُظهرُ لهم من آياته، ويسوقُ إليهم من تنبيهاته، ويطلعهم عليه من تخويفاته وتحذيراته، حتى إذا اطلعوا بتعريفه على غوائل الذنوب استشعروا الخوف بتخويفه، فرجعوا إلى التوبة فرجع إليهم فضل الله تعالى بالقبول، فهو -سبحانه- التائبُ على التائبين أولاً بتوفيقهم للتوبة والإقبالِ بقلوبهم إليه، وهو التائبُ عليهم بعد توبتهم قبولاً لها، وعفواً عن خطاياهم، قال تعالى: {ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُواْ} [التوبة: 118]. وقال ابن القيم:

وكذلك التواب من أوصافه والتواب في أوصافه نوعان

إذنٌ بتوبة عبده وقبولـــــها بعد المتاب بمنـة المنـــــان

وعلى هذا تكون توبته على عبده نوعان:

(الأول: يوقع في قلب عبده التوبة إليه، والإنابة إليه، فيقوم بالتوبة وشروطها من الإقلاع والندم والعزم على ألا يعود إلى الذنب، واستبدال الذنب بالعمل الصالح، الثاني: توبته على عبده بقبوله، وإجابتها ومحو الذنوب بها، فإن التوبة النصوح تجب ما قبلها).

وقد أخبر تعالى بأنه يحب التوابين فقال تعالى في سورة البقرة: {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (222)}.

وإذا كانت التوبة معناها الرجوع والعودة، فإن الله تعالى كثير العودة بأصناف الإحسان على عباده، فهو يوفقهم بعد الخذلان، ويعطيهم بعد الحرمان، ويخفف عنهم أنواع الآلام، ومن توبته يقابل الدعاء بالعطاء، والاعتذار بالغفران، والإنابة بالإجابة، والتوبة بمحو الحوبة. اهـ المنهاج الأسنى شرح أسماء الله الحسنى (764:762/2).